مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية

فصلية علمية محكمة تصدر عن مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

ظاهرة التضمين في الأفعال والحروف عند أهل اللغة والمفسّرين الباء نموذجاً

د. سهير إبراهيم سيف (الباحث الرئيس)

د. نذير بن نبيل الشرايري (الباحث المشارك)

جامعة الكويت

مجلس النشر العلمي

ISSN: 1029-8908

العدد ١١٧- السنة ٣٤

رمضان: ١٤٤٠هـ- يونيو ٢٠١٩م

البحث الثاني

ظاهرة التضمين في الأفعال والحروف عند أهل اللغة والمفسّرين الباء نموذجاً

الباحث الرئيس

د. سهير إبراهيم سيف – أستاذ مساعد كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة طيبة

الباحث المشارك

د. نذير نبيل الشرايري – عضو هيئة التدريس –جامعة اليرموك

ظاهرة التضمين في الأفعال والحروف عند أهل اللغة والمفسّرين الباء نموذجاً

د. سهير إبراهيم سيف (الباحث الرئيس) *
د. نذير بن نبيل الشرايري (الباحث المشارك) **

تاريخ استلام البحث: سبتمبر ٢٠١٧م تاريخ إجازة البحث: مارس ٢٠١٨م.

ملخّص البحث

تقوم هذه الدراسة على بحث قضية جدلية لدى علماء اللّغة والمفسّرين، وكلٌّ يطلق عليها مصطلحاً يتفق والمبدأ الذي يقوم عليه تناولهم لها، فنحويو البصرة أطلقوا عليها ظاهرة التضمين، ونحويو الكوفة سموها تناوباً، أما البلاغيون فوسموها بالاستعارة التصريحية التبعية. ويجمعهم الإقرار بأنها شكل من أشكال التكثيف اللغوي، والتوسع في الوظيفة الدلالية للفظ بما يتناسب والسياق.

وقد حاولت الدراسة الوقوف على آراء هؤلاء ومواقفهم منها، ثم بيان الموقف الخاص بالباحثيْن بناء على شواهد من القرآن الكريم تؤيد ما ذهبا إليه، متخذين حرف الباء نموذجاً.

الكلمات الدالة: التضمين (التضمين في الفعل، التضمين في الحرف)، تناوب الحروف، حروف المعاني، السياق، الاستعارة التبعية، التوسع الدلالي، النّحويون، البلاغيّون، المفسّرون.

المقدمة

عندما يبحث اللغويون أسرار العربية، إنما يتحدثون عن طريقة نظم مفرداتها، أي وضعها في سياق متوازن، تقع فيه المفردة في موقعها الهادئ، بلا نشوز ولا نفور بينها وبين أخواتها. ومما يميز اللغة العربية قدرتها على التعبير عن المعنى الواحد بأكثر من أسلوب، يتراوح بين الحقيقة والمجاز؛ فقد يأتي اللفظ في سياق معبراً عن معنى قد وضع له أصلاً،

(*) د. سهير إبراهيم سيف: تحمل شهادة الدكتوراه عام ٢٠٠٦م، في اللغة والنحو من الجامعة الأردنية، والماجستير عام ٢٠٠٠م، في اللغة والنحو، والبكالوريوس عام ١٩٨٢م، في اللغة العربية وآدابها من الجامعة الأردنية. تعمل أستاذاً مساعداً في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية في جامعة طيبة، ينبع، المملكة العربية السعودية، منذ عام ٢٠١١م. الاهتمامات البحثية: الفكر الإنساني، أصول اللغة، لغة القرآن.

(**) د. نذير نبيل عبد الحميد الشرايري: يحمل شهادة الدكتوراه عام ٢٠١٠م، في التفسير وعلوم القرآن من جامعة اليرموك. والماجستير عام ٢٠٠٧م، والبكالوريوس عام ٢٠٠٤م، في أصول الدين من جامعة اليرموك. عضو هيئة تدريس في جامعة اليرموك منذ عام ٢٠١٦م. عضو تحكيم أبحاث علمية في العديد من المجلات البحثية. الاهتمامات البحثية: قضايا التفسير وعلوم القرآن المعاصرة، الأمن الفكري، الحداثة، الاستشراق.

ويفهم من ظاهر القول، وقد يُعبرَّ عن المعنى بلفظٍ غير الذي وُضع له فيخرج من دائرة الحقيقة إلى المجاز، ويتبين ذلك من خلال العلاقات في التركيب، وعندها نحتاج إلى مزيد من التعمق والتأمل في البنية العميقة للجملة؛ لفهم ما ينطوي عليه التعبير من معان غير ظاهرة، فاللغة العربية على مرونتها وسعتها إلا أن للكلمة في موقعها معنىً دقيقاً لا يؤديه غيرها من الكلمات التي بينها صلة رحم، وإذا كان هذا يتجلى في كلام البشر، فكيف بكلام ربّ البشر جلّ في علاه، فإن القرآن العزيز خير دليل على ذلك، وشواهده أوضح وأدق ما يكشف عن هذه الدقة وهذه السعة.

ومن المسائل اللغوية التي تتجلى فيها أهمية النظم، وأهمية العلائق بين الألفاظ في السياق، ما أطلق عليه النحويون « التضمين»، وذهبوا في ذلك مذاهب، ففي حين رآه بعضهم في الفعل، وهم الذين وقفوا على المعنى الدلالي للفظ، وتوسعوا في فهم المعنى الوظيفي، رآه بعضهم الآخر في الحرف، وهؤلاء اقتصروا على المعنى الحرفي له، وأهملوا الجانب الدلالي. وقد وقف البلاغيون منه موقفاً مسايراً لعنايتهم بالتصوير من خلال الربط بين الحرف ومتعلقه، فخرّجوه على أنه شكل من أشكال الاستعارة التبعية. وقد حاول الباحثان أن يقفا موقفاً محدداً فيما يتعلق بقضية التناوب بين حروف الجر، وهل هو تناوب أم تضمين !.

هذا وقد اعتنى العلماء قديما وحديثا بدراسة هذا الموضوع، وكان من أبرز الدراسات السابقة رصف المباني للمالقي، والأزهية لعلم الحروف للهروي، وغيرها. كما ظهرت عناية المفسرين جلية فبرز منهم الزمخشري والألوسي وابن عاشور ومنهم كذلك أحمد حسن فرحات وستتم مناقشته داخل متن البحث.

وقد استوى البحث في تمهيد وثلاثة مباحث: التضمين والسياق عند النحويين، وموقف البلاغيين من المسألة، ثم التضمين في القرآن الكريم. وخير منهج يُتّبع في هذا السياق منهج التحليل اللغوي، وخير شواهد تعتمد للاحتجاج على ما ذهبنا إليه آيات من الكتاب الحكيم، وإنْ كان قد نزل بلسان القوم، إلا أنه علا كل لسان، وإنه لشرف أن يكون ذلك اللفظ الشريف هو محلّ التطبيق في هذه الدراسة. واللهَ نسألُ التوفيق والسداد.

تمهيد:

من الموضوعات الدقيقة التي تناولها العلماء على اختلاف تخصصاتهم وتوجهاتهم في البحث والتقصي حروف المعاني، فنجد النحوي وقف على معانيها واستعمالاتها، والبلاغي

وقف عند دلالاتها وجوانب البيان في علائقها، ولم يغفل المفسّرون هذه المسألة لما لها من أهمية في الكشف عن أسرار البيان القرآني ومعانيه وإعجازه، مع تباين بين هؤلاء في زاوية الرؤية وطريقة التناول.

قيل: إن علم النحو هو العلم الذي يعرف به أواخر الكلم، ولو اكتفى أهل النحو بهذا الجانب، لما أتوْا لنا بمصطلحات تنمّ عن ربط وثيق بين العلامات الإعرابية التي تظهر على أواخر الكلم والمعنى الذي تؤديه في سياق الكلام، من خلال علائق تربطها بغيرها من الكلمات التي وردت في السياق، فهل الفاعل إلا ما دلّ على من قام بالفعل! والمفعول ما وقع عليه فعل الفاعل! والخبر ما تمّ الكلام به وحسن السكوت عليه!... وغير ذلك من مصطلحات تكشف بوضوح عن ربط علماء النحو وعلماء الأصول بين الكلمة وما تؤديه من معنىً أو وظيفةٍ نحوية في التركيب.

وعرّفوا علم النحو بقولهم: «إنه العلم الذي يدرس التراكيب اللغوية أو الجمل والعبارات من حيث قوانين نظم الكلمات وأنواع الجمل والعلاقات التركيبية بين مكونات الجمل، ووضع النظريات المختلفة حول ذلك، وهو بذلك يمثل علماً محورياً وأساسياً من علوم اللغة، أو كما يقال: قلب علم اللغة»[(١)].

إذن تصدق مقولتهم: الإعراب فرع المعنى، أو المعنى فرع الإعراب، فكل يؤدي إلى الآخر. ولكن علماءنا حين وضعوا حداً للكلمة، قسموها إلى اسم وفعل وحرف، وميزوا بين الحرف والنوعين الآخرين من الكلِم، فقالوا: لا معنى للحرف في نفسه، أي أن لكل من الاسم والفعل والحرف معنى، إلا أن الأول والثاني لهما معنى في أنفسهما، أما الحرف فلا يفيد معنى إلا بغيره. قال الزمخشري: «الحرف ما دلّ على معنى في غيره، ومن ثَمّ لم ينفك من اسم أو فعل يصحبه»[(٢)]، وعرّفه المرادي بقوله: «الحرف طرف في الكلام وفضلة ليس له معنى في نفسه، ولكونه لا يدل على معنى إلا في غيره افتقر إلى ما يكون معه، ليفيد معناه فيه»[(٣)]، وغيرها من الأقوال التي تلتقي بهذا الحد.

(١) خليل، د. عبد النعيم. (٢٠٠٦). البعد الدلالي في الدرس النحوي. مجلة كلية التربية، ١٢(٣)، ٤.
(٢) شرح المفصل، ٤/ ٤٤٧.
(٣) الجنى الداني، ٢٣.

فكلمة (رجل)، مثلاً، اسم جنس يدل على جنس الرجال دون تحديد شخص بعينه، وهذا ما يرد إلى الذهن مباشرة عند سماع الكلمة، دون الحاجة إلى وضعها في سياق أو تركيب؛ لتدل هذه الدلالة، وكذلك الفعل (يقرأ) مثلاً، فعند سماع الكلمة يتبادر إلى الذهن ذلك الحدث مقروناً بزمن الحاضر، أما الحرف فلا يظهر معناه إلا من خلال علاقات معينة يستمدها من السياق الذي يرد فيه؛ فلو سأل سائل: ما معنى حرف الباء؟ فلا يمكن وضع معنى محدد دون إبرازه في سياقه، فيسبغ عليه معنى دلالياً، كأن نقول: عوقب المذنب بذنبه، عندها نستطيع القول: إن الباء هنا أفادت السببية، أي بسبب ذنبه.

ولعل هذا يقودنا إلى القول: إن علم النحو بمعناه الواسع هذا، والذي لا ينفك يربط الكلمة بغيرها من المفردات اللغوية التي يتألف منها التركيب، وما يترتب عليه من كشف عن المعنى العام للجملة أو الخاص للمفردة، كل هذا يجعل العلاقة وثيقة بين علمي النحو والدلالة، فكلاهما لا يقف عند الكلمة ذاتها بعيداً عن الوظيفة النحوية والمعنوية من خلال العلاقة بين مفردات التركيب. ولكن، إذا كان الحرف لا يؤدي معنىً إلا بغيره، فلمَ أطلق العلماء على بعضها حروف المعاني؟ والذي يهمنا في هذه الدراسة حروف الجر فرعاً من فروع حروف المعاني.

المبحث الأول
التضمين والسياق عند أهل اللغة

للوقوف على ظاهرة التضمين وقوفا دقيقا يستعرض الباحثان الآراء في المسألة في مطلبين، الأول منهما: يستعرض فيه الباحثان رأي المدارس النحوية، بينما يكون الثاني: لرأي أهل البلاغة. وقبل الدخول في صلب هذا المبحث يستحسن الباحثان الإشارة إلى ما قاله الأستاذ أحمد حسن فرحات بخصوص هذه القضية. وملخص مقالته في كتابه القرآن والشباب أنه قدّم طرحا جميلا أضاف فيه على من سبقوه، بناء على خصوصية الأسلوب القرآني وتميزه عن الشعر العربي والأساليب البشرية الأخرى[1].

فالقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، فلا يخرج بأساليبه وقواعده عن أساليب العرب والعربية، إلا أنه وهو كلام رب العالمين قد يلتزم من طرائق البيان ما لم يلتزمه الشعراء

(١) انظر: القرآن والشباب، ص ٤٧ – ٥٣

والكتاب. ويضرب على ذلك مثلاً كلمة (عين) بمعنى العين الباصرة وبمعنى عين الماء، فإذا كانت تجمع كل منهما على عيون وأعين عند العرب الفصحاء، فإن القرآن يلتزم جمع عيون لعين الماء في قوله تعالى﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ القمر: ١٢ في حين يلتزم جمع أعين للعين الباصرة ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ﴾ الأعراف: ١٩٥.

وهو يسقط هذه القاعدة، أي خصوصية الأسلوب القرآني على حروف المعاني، فينفي ما ذهب إليه الكوفيون من التناوب بين الحروف، كما يرفض ما ذهب إليه البصريون من تضمين الأفعال، ويرد ذلك لما أطلق عليه «المعاني الخفية» فيقول: « وبناء على ذلك نرى أن أي عدول في التعبير القرآني عن المألوف من ظواهر العربية، إنما هو لمعان خفية جديرة بالاستنباط، وبذل الجهد في الوصول إليها. ذلك أن الحكمة القرآنية والإعجاز لا يمكن أن يعاملا معاملة الكلام البشري في تَجَوُّزَاته و تجاوزَاته... »(١).

ويضرب على ذلك أمثلة من الآيات الكريمة التي استدل بها الكوفيون والبصريون على ما ذهبوا إليه، ومن ذلك قوله تعالى﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ الإنسان: ٦، فقد جاءت الباء بمعنى من، على مذهب الكوفيين، والفعل يشرب بمعنى يرتوي على مذهب البصريين. ويطرح تساؤلاً رداً على الطرفين: لماذا لم تأتِ من بدلاً من الباء، ولماذا لم يأت يرتوي بدلاً من يشرب؟ وللإجابة على ذلك يقول: « وإذا ما لجأنا إلى فكرة «المعاني الخفية» الجديرة بالاستنباط يمكن أن نجد الإجابة على المثالين السابقين كما يلي: يقول تعالى﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ الإنسان: ٥ – ٦، ويلاحظ أنا وضعنا الآية في سياقها؛ لأن ذلك يساعدنا على الفهم والاستنباط، حيث يخبر الله عن نعيم الأبرار في الجنة، وأنهم يشربون من كأس خمر الجنة، ممزوجة بالكافور. ولكن من أين يؤتى بالكافور لتمزج به الكأس ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ إن الكافور عين، فعينا في الآية بدل من الكافور، والأبرار: هم الذين يفجرون هذه العين، ويمزجون كأس خمر الجنة بكافورها.

وعلى هذا فالباء في قوله ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ تفيد المزج المنصوص عليه بقوله: ﴿كَأْسٍ كَانَ

(١) انظر: القرآن والشباب، ص ٥٠.

مِزَاجُهَا كَافُورًا). وذلك كما تقول: شربت الشاي بالحليب، أي ممزوجا به. وهذا المعنى الخفي يضيع إذا قلنا بالنيابة في الحروف، أوقلنا بالتضمين في الأفعال، ذلك أن من تمام النعيم للأبرار، أن يضيفوا إلى متعة الشرب، متعة التفجير، ومتعة المزج.. وفي ذلك زيادة تمتع»[1].

ويرى الباحثان أن كلام الأستاذ فرحات وقع في موقعه. والمعاني الخفية التي يتحدث عنها إنما تفهم من تقدير كلام محذوف يدل عليه موجود ويعين عليه السياق. وتأويله لكلمة (ممزوجا) أعانه عليها الحرف والفعل، فلا الحرف خرج عن أصل معناه، ولا الفعل تضمّن معنى فعل غيره، ولكن المعنى الخفي اعتمد على محذوف أعان على تقديره السياق.

المطلب الأول
رأي النحويين في المسألة

ذهب العلماء بهذا الخصوص مذهبين اثنين، وكان على رأسهم علماء المدرستين النحويتين البصرية والكوفية[2]. ففي حين رأى الكوفيون أن حروف الجر تتناوب في معانيها، أي يمكن أن يأتي أحدها بمعنى الآخر، إذ إن قصر الحرف على معنى واحد تعسّفٌ لا مسوّغ له عندهم، فالحرف كلمة كالأسماء والأفعال التي تحتمل أكثر من معنى، فحق لها أن تؤدي عدة معان أصلية كذلك. رفض البصريون ما ذهب إليه الكوفيون، فهذا ابن جني يقول: «... وما أبعد الصواب عنه وأوقفه دونه، وذلك أنهم يقولون، إن «إلى» تكون بمعنى مع؛ ويحتجون لذلك بقول الله سبحانه: ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ آل عمران: ٥٢، أي مع الله، ويقولون: إن « في» تكون بمعنى على، ويحتجون بقوله عزّ اسمه﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ طه: ٧١، أي عليها، ويقولون: تكون الباء بمعنى عن وعلى، ويحتجون بقولهم: رميت بالقوس أي عنها وعليها... وغير ذلك مما يوردونه»[3].

فهو يرفض تضمين الحرف معنى حرف آخر، إلا أنه يذهب إلى تضمين الفعل معنى فعل آخر، فقد يعدى فعل إلى حرف يتعدى إليه فعل تضمّن معناه، وذلك كقول الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ آل عمران: ٥٢، فقد تعدى الفعل بالحرف إلى

(١) انظر: القرآن والشباب، ص ٥١.
(٢) الكتاب، ٤/ ٢٢٤. المقتضب للمبرد، ٢/ ٣١٩. الخصائص لابن جني، ٢/ ٣٠٦.
(٣) الخصائص، ٣٢٩.

ما تضمّن معنى الإضافة: أي من ينضاف في نصرتي إلى الله، مما أجاز مجيء الحرف «إلى» في هذا السياق وأضفى عليه معنىً مقصوداً يفهمه المخاطب من دلالة التعدّي بإلى[١].

وقد تباينت أقوال المفسرين بين جاعل (إلى) نائبة عن (مع)، وبين من يرى أن المسألة أبعد من أن ينوب حرف فيها مكان حرف، وأن وراء الكلام معنىً مضمّنا يفهم من ضمّ إلى لأنصاري بدلا عن مع. قال الطبري: « ويعني بقوله: (إلى الله)، مع الله. وإنما حَسُن أن يقال: إلى الله؛ بمعنى: مع الله؛ لأن من شأن العرب إذا ضموا الشيء إلى غيره، ثم أرادوا الخبر عنهما بضم أحدهما مع الآخر إذا ضم إليه، جعلوا مكان(مع)، (إلى) أحيانًا[٢].

وقال الزمخشري: « فإن قلت: ما معنى قوله مَنْ أَنْصارِي إِلَى اللهِّ؟ قلت: يجب أن يكون معناه مطابقا لجواب الحواريين نَحْنُ أَنْصارُ اللهِّ، والمعنى: من جندي متوجها إلى نصرة الله، وإضافة أَنْصارِي خلاف إضافة أَنْصارَ اللهِّ، فإنّ معنى نَحْنُ أَنْصارُ اللهِّ أي نحن الذين ينصرون الله. ومعنى مَنْ أَنْصارِي من الأنصار الذين يختصون بى ويكونون معي في نصرة الله، ولا يصح أن يكون معناه: من ينصرني مع الله؛ لأنه لا يطابق الجواب [٣].

وممن انتصر للقول بتضمين الأفعال، القاضي ابن العربي الإشبيلي فقال: « والتضمين في الفعل أقيس وأوسع، وكذلك عادة العرب أن تحمل معاني الأفعال على الأفعال لما بينهما من الارتباط والاتصال، وجهلت النحوية هذا، فقال كثير منهم: إن حروف الجر يبدل بعضها عن بعض، ويحمل بعضها معاني البعض... فالتضمين في الحروف مرذول مطّرح»[٤].

إلا أن الفعل الذي يرد ذكره لا يفقد المعنى الذي وضع له أصلاً، فيجمع معناه إلى المعنى المتضمّن الجديد، ومن هنا يكون الإعجاز البياني في النص القرآني، ولولا هذا المقصد لما جيء بهذا الفعل وقصد به ذاك، فما زال السياق متشرباً المعنى الأصل مضافاً إليه المعنى الآخر، يقول الجاحظ: « وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها. ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو الفقر المدقع والعجز الظاهر. والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة... والجاري

(١) الكشاف، ١/ ٣٦٦.
(٢) الطبري، جامع البيان، ج ٦، ٤٤٣
(٣) الكشاف، ٤، ٥٢٨
(٤) أحكام القرآن، ١/ ١٧٧.

على أفواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال... والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالا وتدع ما هو أظهر وأكثر»[1].

وقد تحمل اللفظة في القرآن معنىً في ظاهرها، ولكن عند إعمال الفكر فيها، وانطلاق العقل في معانيها، تأْنَسُ النفس لمعنى جديد كان غائباً للوهلة الأولى، فهو النص الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد. قالوا: « الأصل أن يحمل على اللفظ، وهو الأقوى والأكثر والأفصح، ولجأوا إلى التأويل فيه حفاظاً على أصل المعنى ومخالفة ظاهر اللفظ معناه، وخروج الكلام على مقتضى الظاهر»[2].

ولذلك يرى الباحثان: أن القول بالتضمين يؤكد سعة اللغة العربية ومرونتها، فهناك البنية السطحية، وأخرى العميقة، فلا يحكم على المعنى الظاهر في بعض الأحيان لما تختزنه من معان ودلالات قد لا تتبدّى إلا للمتبحّر فيها الغائص في أعماقها، فتتكشف له عن أغراض كامنة يكشفها السياق والتراكيب، وتعين على رجحانها القرائن المتصلة بهما.

والتضمين لغة: « إشراب لفظ معنى لفظ آخر»[3]. يقول الزمخشري: « يضمنون الفعل معنى فعل آخر، فيجرونه مجراه ويستعملونه استعماله، مع إرادة معنى المتضمّن... والغرض في التضمين إعطاء مجموع المعنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذّ»[4]. إذن هو ضرب من التوسّع في استعمال الألفاظ، حين يؤدي لفظ معنى لفظ آخر، ثم يسبغ عليه من خصائصه اللغوية والمعنوية ما يجعل الكلام مستقيماً بإحلاله محلّ غيره، بل يضفي على الكلام دلالات أوسع ومعنى أعمق، ما كان ليكون لو جاء اللفظ المقصود. وهذا كله يتطلب طول نظر، وعدم الاكتفاء بالوقوف عند القشرة السطحية في دراسة النصوص، خاصة عند الوقوف على آيات القرآن الكريم، يقول الدكتور محمد نديم فاضل: « الألفاظ مغلقة على معانيها، وأغراضها كامنة فيها، إنما يفتحها النظم ويستخرجها، فانظر فيه وفي صياغته

(١) البيان والتبيين، ١/ ٤١.
(٢) مغني اللبيب، ٢/ ٤٩٣. النحو الوافي، ٢/ ٤٦٣.
(٣) الجنى الداني، ٤٦.
(٤) الكشاف، ٢/ ٤٨١.

وسياقه ومدلوله، وترسّم آفاقه لفهم معانيها وتحديد أبعادها»[1].

فقد ذهب النحويون، كما نرى، إلى أن التضمين الذي يحتمله الاسم أو الفعل لا يحتمله الحرف، فإذا كان الحرف لا يؤدي معنىً بنفسه، حتى المعنى الأصلي الذي وضع له، فكيف به يتضمن معنى حرف آخر! يقول الدكتور محمد نديم فاضل: «فالحرف لا يدخل فيه المجاز ولا يتحمّل التضمين؛ لأن معناه غير مستقل بنفسه، ولكننا حين نضعه في سياق معيّن، يتفتح عن رصيده المذخور وإيحائه المتجدد. والمتتبع لهذه الحروف في كتاب الله بعد إنعام الفحص عن كنهها وإلطاف النظر فيها، يراها تخرج عن معناها المألوف الذي وضعه علماء اللغة لها، وإنما طريقة عرضها تكشف عن أسرار استودعها الله فيها»[2].

وكأني أجد في كلام الدكتور فاضل تسمّحاً في تضمين الحرف معنى حرف آخر، وليس التناوب المرفوض عنده وعند عدد من العلماء قديما وحديثا، فهي وإن لم تؤدّ معنىً قائماً بذاتها، فإنها تشكل روابط دقيقة في الكلام توجّه المعنى المراد وتوضحه، وتُحمّل الفعل الذي عُدّي بها معنىً آخر غير ما اصطلح القوم عليه، فما الذي أدّى إلى هذا التحول في المعنى؟ أليس هو الحرف؟ فلولا اقتران حرف الجر بالفعل لما تغير معناه الحقيقي الذي وضع له في اللغة أصلاً، فإذا كنا نعترف أن الحرف لا يؤدي معنى بذاته، ولا بد أن يقترن بغيره؛ ليؤدي دوراً دلالياً في التعبير، إلا أن له من القوة ما تزحزح الفعل عن معناه الحقيقي المعجمي. بل إن الباحثين يؤكدان أن حرف الجر قد يتضمن معنى حرف آخر غير المعنى الذي اتفق عليه أهل اللغة، دون أن يفقد خصوصيته، أي ذلك المعنى الموضوع له، مضافاً إليه معنى جديد من خلال ارتباطه بفعل لا يتعدى إليه بالأصل، وبالتالي فإن التضمين كما هو متحقق في الفعل، فإن الباحثين يؤكدان أنه متحقق أيضاً في الحرف حين يضم إلى فعل ما في سياق ما.

ويرى الباحثان في الشواهد التي جاء بها د. فاضل على ذلك التحوّل في المعنى تبعاً للسياق الذي وردت فيه بعض هذه الحروف، ومنها الباء الذي هو موضوع الدراسة، دليل على ما نذهب إليه، فكيف يتحول معناه في كل حين حسب العامل الذي عمل فيه؟ فالباء في قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ العنكبوت: ٤٠، غير الباء في قوله جل في علاه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ

(١) التضمين في القرآن الكريم، ٨.

(٢) التضمين في القرآن الكريم، ٦٠ – ٦١.

﴿ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ﴾ آل عمران: ١٢٣، وغيرها في قوله تعالى: ﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ الفرقان: ٥٩، وغيرها في قوله تعالى: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ الإنسان: ٦، ففي كلٍ معنىً يتبع معنىً وظيفياً للحرف مع الفعل لا معنىً معجمياً محصوراً في ذاته.

وهذا ما يقود الباحثين إلى القول بما ذهب إليه النحاة أن الأفعال تختص بحروف تتعدى بها ولا تتحول عنها، فالفعل استمع، مثلاً، يتعدى بالحرف إلى واللام؛ ولذا نجد المفسرين يقفون عند قوله تعالى: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ الإسراء: ٤٧، مواقف مختلفة، بين جاعل الباء بمعنى السببية[١]، وبين مضمّن الباء معنى اللام، بل وذهب آخرون مذهباً أبعد حين قدروا محذوفاً[٢].

ويلفت الدكتور محمد نديم فاضل لفتة لطيفة حين يرى أن السمع هنا تضمن معنى العناية والاهتمام، فكفار قريش معنون بسمو بيان القرآن الكريم وإعجازه، فكانوا يلقون له أسماعهم واهتمامهم، ولكن حرصهم على زعامتهم تأبى عليهم إلا مجاهدة فطرتهم.

فالمعنى المستحق للحرف لا يتأتى إلا بفعله المصاحب له لا بالحرف نفسه، وعندما يظهر الحرف نبوّاً في صحبته للفعل، يفتح لنا آفاق التفكّر والتأمّل، ويلوّح بمعنى ما كان ليكون لولا القرائن والسياق. وهذا لا يقلل من أهمية الحرف ولا من قدرته على إبراز المعنى العميق، فهي الأدوات التي تربط أطراف الجملة بعضها ببعض، وهي التي تضيف إلى المعنى الظاهر معنىً عميقاً، فلولا ذلك الحرف لما سعينا إلى البحث عن المعنى المتضمّن في ذلك الفعل، وهذا هو الجانب الوظيفي لحروف الجر، فهو على ضعف ماهيته إلا أنه قوي في أداء وظيفته، فهو أداة لتوصيل الفعل الضعيف والقاصر إلى معموله، وبدونه لا يستطيع. وبمعنى آخر هو أداة لتعدية الفعل، وقد سمى العلماء هذه التعدية بتعدية الإضافة، إذ تضيف معاني الأفعال قبلها إلى الأسماء بعدها[٣]؛ ولذلك أطلق النحاة على حروف الجر اسم حروف الإضافة.

كما أن الفعل قد يُعدّى بأكثر من حرف من حروف الجر، وله مع كل حرف دلالة ومعنى، فعندما نقول: رغبت فيه نقصد غير ما نقصده عند القول: رغبت عنه، بل المعنى عكس ما

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ٣/ ٢٥٧.
(٢) انظر: الدر المصون، ٧/ ٣٦٤.
(٣) شرح المفصل، ٨/ ٧.

قصد إليه في الجملة الأولى، وسعيت إليه غير سعيت به، وهكذا؛ ولهذا نرى أن الفعل يكتسب معنىً جديداً مع كل حرف يتعدى به مع احتفاظه بمعناه الأصلي، كما يكتسب الحرف معنى جديدا بارتباطه بذلك الفعل دون أن يتخلى عن المعنى الأول الذي وضع له.

وقد خصت هذه الدراسة حرف الباء؛ للولوج إلى أسراره وما قال العلماء في المعاني التي يأتي عليها. ومجموع معانيها التي ذكرها المرادي في الجنى الداني ثلاثة عشر معنى[1]:

أولها: الإلصاق: وهو أصل معانيها، ولم يذكر لها سيبويه غيره، بل زاد على ذلك حين قال: « فما اتسع من هذا في الكلام فهذا أصله»[2] كأن يقال: أمسكت الحبل بيدي، وهنا يكون الإلصاق حقيقياً، ويأتي مجازاً مثل القول: مررت بزيد.

الثاني التعدية: وهي القائمة مقام الهمزة في إيصال معنى الفعل اللازم إلى المفعول، كقوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ ﴾ البقرة: ١٧ ؛ لتضمنه معنى التصيير، أي صيّره ذاهباً. وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ﴾البقرة: ٢٠.

الثالث: الاستعانة: وهي الداخلة على آلة الفعل، ومنه ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

الرابع: التعليل: وهي التي تصلح غالبا في موضعها اللام، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ ﴾ البقرة: ٥٤.

الخامس: المصاحبة: فيحسن موضعها «مع» ويغني عنها وعن مصحوبها الحال، كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ النساء: ١٧٠، أي مع الحق.

السادس: الظرفية: فيحسن موضعها « في» كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾ آل عمران: ١٢٣

السابع: البدل: كقوله ﷺ: « ما يسرّني بها حمُر النِّعم»[3].

الثامن: المقابلة أو العوض: وهي الداخلة على الأثمان والأعواض، نحو: اشتريت الفرس بألف، وكافأت الإحسان بضِعف.

---

(١) الجنى الداني، ٣٥ – ٤٥.

(٢) الكتاب، ٢/ ٣٠٤.

(٣) أخرجه الإمام البيهقي في السنن الكبرى، كتاب جُمَّاعُ أَبْوَابِ الْغُسْلِ لِلْجُمُعَةِ وَالْأَعْيَادِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، باب الغسل من غسل الميت، حديث رقم ١٤٣٥.

التاسع: المجاوزة: وهوكثير بعد السؤال، نحو قوله تعالى: ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ الفرقان: ٥٩، وقوله: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ المعارج: ١، وقيل: هذا من باب تضمين سأل معنى اعتنى واهتم.

العاشر: الاستعلاء: ومن أمثلتها عندهم قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ ﴾ آل عمران: ٧٥.

الحادي عشر: التبعيض: ومنه قوله تعالى: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ ﴾ الإنسان: ٦،وقد أنكر كثيرون هذا المعنى، منهم ابن مالك وابن جني، وتأولوه على التضمين، أي تضمين شرب هنا معنى روي.

الثاني عشر: القسم: ومنه قولنا: بالله لأفعلنّ

الثالث عشر: أن تأتي بمعنى «إلى»: كقوله تعالى ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ ﴾ يوسف: ١٠٠، أي إليَّ، وإن ذهب بعضهم إلى تضمين أحسن معنى لطف.

إلا أن كثيراً من المحققين قد ردّ سائر معاني الباء إلا المعنى الأول وهو الإلصاق، إما بالتأويل أو التضمين، في حين ذهب بعضهم مذهب الكوفيين في القول بتنويع معانيها، ونيابة الباء عن حروف أخرى.

ويرى الباحثان أن المعنى الأول أي الإلصاق هو المعنى الحقيقي للباء، وإذا صاحب فعلاً غير الأفعال التي تتعدى به فإنه لا يجاوز معناه، بل يتحمّل معنى آخر إلى جانب ذلك المعنى، إذ إن الفعل مع الحرف يشكل مركباً متيناً، كل منهما يؤثر في توجيه معنى الآخر، فكما يوجه الحرف معنى الفعل، فإن الفعل كذلك يوجه معنى الحرف، دون أن ننفي أن الفعل يمثل الأصل في الجملة، وأنه العنصر الأقوى، وأن الحرف هو أداة ربط، وأنه لا يؤدي معنى دون ارتباطه بغيره في النظم.

مما تقدم، نجد أنفسنا أمام فريقين من العلماء، فريق: وقف عند حدود اللفظ الظاهر، وهو يحاول استنباط معاني حروف الجر في تراكيب واردة عن فصحاء العرب وممن يوثق بعربيتهم، أو أمام النص القرآني الكريم الذي يعلو كلَّ الأساليب والبيان، وإذا استغلق عليه الأمر ولم يجد المعنى مطابقاً للقواعد الموضوعة لها، والمعنى المعجمي الموصوفة به، عندها وجد له مخرجاً بالقول إن الحرف هنا تضمّن معنى حرف آخر، إذ إن الفعل الوارد في ذاك التركيب لا يتعدى إلى الحرف المذكور.

وفريق آخر: توسع في معنى الفعل، وهو اللفظ الذي قد يسع معاني أكثر، وفيه من المرونة في الدلالة ما يجعله قادراً على تحمل معاني أوسع، فأعملوا الخيال والعقل، وبحثوا عن قرائن من السياق والمقام ما يساعدهم على استدراك ما قد يفوتهم في حمل اللفظ على ظاهره، وذلك حين يجدون الفعل يقترن مع حرف ليس مما يتعدى به، وحين فعلوا ذلك تفتقت العبارات عن معاني ودلالات عميقة لم تكن لتكون لولا هذا الحمل وذلك التأويل.

المطلب الثاني
موقف البلاغيين من المسألة

أشار البلاغيون لهذه المسألة عندما تعرضوا لتقسيم الاستعارة التصريحية باعتبار اللفظ المستعار إلى: أصلية وتبعية. أما الأصلية: فهي ما كانت في اسم جنس (شجرة، أسد، بحر)، أو اسم معنى (كرم، قتل، إحسان) والتبعية: ما كانت في الأفعال أوالمشتقات أو الحروف.

وما يهمنا في هذا السياق ما ورد عنهم حول الاستعارة التبعية في الحروف، ويوضح أحمد الهاشمي سبب تسميتها بالتبعية إذ يقول: «وسميت (تبعية)؛ لأن جريانها في المشتقات، والحروف، تابعٌ لجريانها أولاً في الجوامد، وفي كليات معاني الحروف، يعني: أنها سميت تبعية لتبعيتها لاستعارة أخرى؛ لأنها في المشتقات تابعة للمصادر؛ ولأنها في معاني الحروف تابعة لمتعلّق معانيها، إذ معاني الحروف جزئية، لا تتصور الاستعارة فيها إلا بواسطة كلي مستقل بالمفهومية ليتأتى كونها مشبهاً، ومشبها بها، أو محكوماً عليها، أو بها»[1].

يتضح من ذلك أن الاستعارة في رأي البلاغيين لا تكون في الحرف وإنما بمتعلقه؛ لأن الحروف لا تؤدي معنى كلياً إلا بمتعلقها، ولا تعرف إلا إذا كانت مع جملتها، فلا يظهر معناها إلا بالتركيب والنظم؛ لذا فإن الاستعارة تقع أولاً في متعلق معنى الحرف ثم فيه.

ومن الأمثلة التي يذكرها البلاغيون على الاستعارة في الحروف قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾القصص: ٨ ،فاللام في الآية الكريمة تفيد التعليل، وما بعدها يترتب على ما قبلها، أي أن ما بعدها هو علة لما قبلها، إلا أنهم يقولون إن اللام لم

(١) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ١/ ٢٦٦.

تأت في الآية فيما وضعت له. فقد رجح الطبري أنها للعاقبة، قال: « قول الله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ لما هو كائن في عاقبة أمره لهم، وهو كقول الآخر إذا قَرَّعه لفعل، كان فعله وهو يحسب محسنا في فعله، فأداه فعله ذلك إلى مساءة مندِّما له على فعله: فعلت هذا لضرّ نفسك، ولتضرّ به نفسك فعلت. وقد كان الفاعل في حال فعله ذلك عند نفسه يفعله راجيا نفعه، غير أن العاقبة جاءت بخلاف ما كان يرجو. فكذلك قوله: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ إنما هو: فالتقطه آل فرعون ظنًّا منهم أنهم محسنون إلى أنفسهم، ليكون قرّة عين لهم، فكانت عاقبة التقاطهم إياه منه هلاكهم على يديه» [1]. وبمثله قال ابن عطية الاندلسي: « وقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ هي لام العاقبة لا أن المقصد بالالتقاط كان لأن يكون عدوا» [2].

وذهب الزمخشري إلى ما هو أبعد من جعلها لام العاقبة، حين أجرى المجاز والاستعارة في الحرف مع الإبقاء على المعنى الأصلي لحرف اللام في سياقه، فقال: « اللام في لِيَكُونَ هي لام كى التي معناها التعليل، كقولك: جئتك لتكرمنى سواء بسواء ولكن معنى التعليل فيها وارد على طريق المجاز دون الحقيقة؛ لأنه لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوّا وحزنا، ولكن: المحبة والتبني، غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته، شبه بالداعي الذي يفعل الفاعل الفعل لأجله، وهو الإكرام الذي هو نتيجة المجيء، والتأدب الذي هو ثمرة الضرب في قولك: ضربته ليتأدّب. وتحريره: أن هذه اللام حكمها حكم الأسد، حيث استعيرت لما يشبه التعليل، كما يستعار الأسد لمن يشبه الأسد» [3].

يقول حامد عوني[4] : « فاعلم أن اللام في الآية المذكورة مستعملة في غير ما وضعت له؛ لأن ما بعدها – وإن كان مترتبًا على ما قبلها ليس علة باعثة عليه؛ ذلك أن آل فرعون لم يلتقطوا موسى – عليه السلام –؛ ليكون لهم عدوًّا وحزَناً، وإنما التقطوه ليكون حبيبًا لهم وسروراً، لكن لما كانت النتيجة المترتبة على التقاطهم هي العداوة والحزن لا المحبة والسرور، أشبه العداوة والحزن المترتبان على الالتقاط في الواقع بالمحبة والسرور اللذين كانا ينبغي أن

(١) الطبري، جامع البيان، ١٩/٥٢٣.
(٢) ابن عطية، المحرر الوجيز، ٤/٢٧٧.
(٣) الزمخشري، الكشاف، ٣/ ٣٩٤ .
(٤) المنهاج الواضح للبلاغة، ١١٢.

يترتبا عليه، ثم استعملت اللام فيه تجوزًا».

وإجراء الاستعارة فيه أن يقال: شبّه العداوة والحزن المترتبين على الالتقاط بالعلة الحقيقية التي هي «المحبة والسرور» بجامع الترتب على الالتقاط في كل، فسرى هذا التشبيه إلى تشبيه ترتب العداوة والحزن على الالتقاط بترتب العلة الحقيقية عليه بجامع مطلق ترتب شيء على شيء، ثم استعيرت «اللام» الموضوعة لترتب العلة الحقيقية على الالتقاط لترتب غير العلة الحقيقية عليه، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

وأول من صرّح بذكر الاستعارة في الحروف هو الإمام جار الله الزمخشري صاحب الكشاف، يقول د. أبو موسى [1] :«أما الاستعارة في الحرف فلم يلتفت إليها كثير من البلاغيين قبل الزمخشري، وإن وجدت إشارات تومئ إليها في كتب التفسير، وإذا كان البلاغيون متفقين على أن الاستعارة في الأفعال والمشتقات تؤول إلى مصادرها، فإنهم اختلفوا فيما تؤول إليه الاستعارة في الحرف، فقال السكاكي: إن الاستعارة في الحرف تابعة للاستعارة في متعلقه، وفسر المتعلق بقوله: « والمراد بمتعلقات الحروف ما يعبر بها عنها عند تفسير معانيها «، مثل قولنا «من» معناها الابتداء، و«في» معناها الظرفية و« اللام» معناها الغرض، فهذه ليست معاني الحروف، وإلا لما كانت حروفا بل أسماء وإنما هي متعلقات لمعانيها ».

«فالاستعارة هنا لم تخرج عن دائرة الحرف خروجا كاملاً، وإنما ارتفعت من دائرة أفراد الحروف إلى معانيها الكلية »، ففي قولنا زيد في نعمة، فإن الاستعارة هنا في لفظ « في» التي ظهرت في معناها الكلي وهو الظرفية، والتقى الالتباس والظرفية بمعنى التمكين، ثم استعيرت الظرفية للالتباس، فسرى التشبيه والاستعارة من الكليات إلى الجزئيات التي هي الحروف. ويضيف د. أبو موسى «وإنما هو تصوير يجري في الأفق القريب لمدلول العبارة فقولك: زيد في نعمة، فيه تصوير للنعمة في صورة ظرف يحيط بزيد ويغمره من جهاته، فيؤكد معنى فيوض النعمة التي هو فيها، والتي تملأ جوانب نفسه، ولهذا رأينا الخطيب، وابن يعقوب يقررون أن الاستعارة في الحرف تابعة لتشبيه يجري في مدخول الحرف، أي في مجروره»[2].

(١) المفتاح، ٢٠٣. التصوير البياني، ٢٢٣.

(٢) انظر: التصوير البياني، ٢٢٣ – ٢٢٤. وانظر البلاغة القرآنية عند الزمخشري، ٤١٩ – ٤٢٠.

مما تقدم ندرك أن البلاغيين لم يجردوا الحرف من معناه، بل تشكلت الصورة من كلا المعنيين: المعنى الأصلي والمعنى الجديد المتضمّن فيه، وذلك من خلال علائق جديدة في التركيب، فتعلق الحرف بألفاظ أضفت على العبارة صورة جميلة جمعت بين الحقيقة والمجاز في صورة استعارة تصريحية، أطلقوا عليها استعارة تبعية؛ ففي الآية الكريمة ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ طه: ٧١، فإن (في) في الأصل يفيد الظرفية، ولكن بتعلقه بالصلب ثم الجذوع أعطى صورة عميقة للصلب الذي يكون على الجذوع وليس فيها، فتداخل المعنيان معاً: الاستعلاء والظرفية، فشبه متعلق الاستعلاء بمتعلق الظرفية بجامع التمكن في كلٍّ، قال ابن عاشور: «والتصليب مبالغة في الصلب... وهي راجعة إلى الكيفية أيضا بشدة الدقّ على الأعواد؛ ولذلك عدل عن حرف الاستعلاء إلى حرف الظرفية تشبيهاً لشدّة تمكّن المصلوب من الجذع بتمكّن الشيء الواقع في وعائه... وتعدية فعل ولأصلبنكم بحرف (في) مع أن الصلب يكون فوق الجذع لا داخله ليدلّ على أنه صلب متمكن يشبه حصول المظروف في الظرف، فحرف (في) استعارة تبعية تابعة لاستعارة متعلق معنى (في) لمتعلق معنى (على)»[1].

المبحث الثاني
التضمين في القرآن الكريم

القرآن الكريم كتاب يعلو على كل كتاب، كلماته تشع بالنور المعنوي واللفظي، فكل كلمة وردت في موقعها الذي لا يمكن الاستغناء فيه عنها واستبدالها بغيرها، فما تؤديه من معنى ودلالة لا تقوم به أية كلمة أخرى ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ هود: ١، فكلمات القرآن مختارة منتقاة لا تسدّ أية كلمة مسدّ الكلمة الأخرى ولو كانت صلة القربى بينهما وثيقة؛ لأن لكلّ كلمة قرآنية شخصيتها التي تميّزها عن غيرها في سياقها الخاصّ بها.

وقد تبدّت أسرار اللغة العربية من خلال الأسلوب القرآني في أبهى صورها، دون أن يخرج عن قوانينها ونواميسها التي عرفها القوم، بل نزل بلسانهم فأدركوا بيانه ومعانيه، ما ظهر منها وما خفي، معتمدين في ذلك مجموعة من القرائن: المعجمية والدلالية والسياقية، تدعمها الملكة اللغوية القادرة على الاستنباط والتحليل والتأويل.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٦/ ٢٦٥

ومن الأسرار التي تجلت في القرآن العظيم ظاهرة التضمين اللغوي، والتي تمثل جزءاً من ظاهرة أخرى كانت محطّ اهتمام أهل اللغة واللغويين، ألا وهي ظاهرة الإيجاز اللغوي، أو ما يمكن تسميته بالاختزال أو الاقتصاد اللغوي، وهو وضع الفكرة في حيّز قليل من الألفاظ، فإن التضمين يحمّل الكلمة معنى كلمتين، ولكنهم عبروا عن المعنيين بكلمة واحدة بأسلوب عبقري يدل على طول نظر في التفكير ودقة ودهاء في التعبير. وسنلاحظ ورودها مرة في الفعل ومرة في الحرف، وستعرض هذه الدراسة شواهد من آيات القرآن الكريم على كل من الحالتين:

المطلب الأول
التضمين في الفعل

من مظاهر المرونة في اللغة العربية أن العلاقة بين الفعل والحرف علاقة غير لازمة، إلا أن العلاقة الجديدة تضفي على الفعل دلالة جديدة لم تكن لتتسع لها لو اقترنت بحرف آخر. ويتضح المقال بالوقوف على الأمثلة التي توضح هذا، ومنها:

أولا: في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾ التوبة: ٦١.

ورد الفعل (يؤمن) مرتين، عدي مرة بالباء، والأخرى باللام، ونلاحظ اختلاف المعنى الذي يفهم في كلٍّ منهما، يقول الزمخشري[1]: « فإن قلت لمَ عُدّي فعل الإيمان بالباء إلى الله تعالى وباللام إلى المؤمنين؟ قلت: لأنه قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر، وقصد الاستماع للمؤمنين، وأن يسلّم لهم ما يقولونه ويصدقهم... «ويربط بين هذا المعنى وقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ يوسف: ١٧. ويقترب من هذا المعنى قول البيضاوي[2]: « ويؤمن للمؤمنين يصدقهم لما علم من خلوصهم، واللام للتفرقة بين إيمان التصديق فإنه بمعنى التسليم، وإيمان الأمان». وقال الجمل[3]: وقوله يؤمن للمؤمنين أي

(١) الكشاف، ٢/ ٢٨٤.
(٢) أنوار التنزيل، ٣/ ٨٦.
(٣) الفتوحات الإلهية، ٢/ ٢٩٤.

يسلّم ويرضى لهم... عُدِّي الإيمان إلى الله بالباء لتضمنه معنى التصديق، ولموافقة ضده وهو الكفر ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ النحل: ١٠٦ وعداه للمؤمنين باللام لتضمنه معنى الانقياد والتسليم...».

يمكن للباحثين أن يخلصا مما تقدم إلى أن الإيمان في الحالين يعود إلى أصل المعنى، ففي الصحاح: «أمِن: الأَمانُ والأَمانَةُ بمعنىً. وقد أَمِنْتُ فأنا آمِنٌ. وآمَنْتُ غيري، من الأمن والأمان. والإيمان: التصديق. والله تعالى المُؤْمِنُ؛ لأنّه آمَنَ عبادَه من أن يظلمهم. والأَمْنُ: ضدُّ الخوف. والأَمَنَةُ بالتحريك: الأَمْنُ. ومنه قوله عز وجل: (أَمَنَةً نُعاساً). والأَمَنَةُ أيضاً: الذي يثق بكلِّ أحد»[1]. إذن الإيمان يعني: التصديق، والأمن والأمان، بالإضافة إلى الطمأنينة والثقة. وإنما يرجح معنى التصديق على الإيمان بالقرينة، والحرف هو الذي يوجهه ويقويه.

فإذا ربطنا بين المعنى المعجمي لكلمة إيمان وما جاء في الآية الكريمة فإن الإيمانين يحملان معنى التصديق والأمن والأمان، إلا أن الإيمان الذي ارتبط بالله عز وجل جاء على أصل المعنى؛ لأنه ارتبط بالباء وهو الحرف الذي يتعدى به على وجه الحقيقة، ولما قال يؤمن للمؤمنين، فقد تضمنت معنى التصديق مع تشريبه معاني أخرى وهي الاستماع والتسليم لما يستمع، فعندما علم صدق إيمانهم وصدق قولهم شعر بالأمان لكل ما يقولونه، وكأنهم امتلكوه بقوة صدقهم وإيمانهم، وهنا نجد أن الفعل بتعديه للام تضمن معنى فعل التسليم والاستماع والانقياد؛ وذلك لأن المعنى الأصلي للام هو التملك، وهذا ما يفعله الإيمان بالنفس وما تشعّ به من قوة التأثير حتى تأسر من حولها، فلا يملك إلا الإحساس بالأمن والأمان، ومن ثم الإيمان بكل ما يصدر عن تلك النفس التي امتلأت يقيناً وثباتاً وصدقاً، وما يخرج من قلب صادق لا يمكن إلا أن يصيب القلب الذي يصب فيه، ولعل هذا ما يرمي إليه ﷺ حين قال: «وإن الصدق ليهدي إلى الإيمان».

ثانيا: يقول الله تعالى: ﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ القصص: ١٠.

قول الزمخشري[2]: «يعنى: بطل قلبها وذهب، وبقيت لا قلب لها من شدّة ما ورد عليها،

(١) تاج اللغة وصحاح العربية، ٥/ ٢٠٧١.
(٢) الكشاف، ٣/ ٣٩٥.

لَتُبْدِي بِهِ لتصرح به، أي تجهر به ولا تكتم أمره. والضمير لموسى والمراد بأمره وقصته، وأنه ولدها. لَوْلا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها بإلهام الصبر، كما يربط على الشيء المنفلت ليقرّ ويطمئن؛ لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ من المصدّقين بوعد الله، وهو قوله: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾، ويجوز: وأصبح فؤادها فارغا من الهم، حين سمعت أن فرعون عطف عليه وتبناه. إن كادت لتبدي بأنه ولدها؛ لأنها لم تملك نفسها فرحا وسرورا بما سمعت، لولا أنا طمّنّا قلبها وسكنّا قلقه الذي حدث به من شدّة الفرح والابتهاج؛ لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله لا بتبني فرعون وتعطفه».

وقال العز بن عبد السلام[1]: « ﴿لَتُبْدِي بِهِ﴾ لتصيح به عند إلقائه: وا ابناه، أو تقول لما حملت لإرضاعه وحضانته: هو ابني؛ لأنه ضاق صدرها لما قيل هو ابن فرعون، أو لتبدي بالوحي».

فالآية الكريمة ترسم لنا صورة لصراع داخلي في نفس أم موسى في لحظة لقائها بولدها، بعد أن كاد الحزن والخوف يذهبان بعقلها، لولا رحمة الله بها وإلقاء السكينة والطمأنينة في قلبها، وكادت البوح والتصريح بسرها وأمومتها التي لا تستطيع مداراتها، وقد عبر عن هذا المعنى بالفعل (تبدي) الذي يتعدى مباشرة لمفعوله، إلا أنه تعدى بالباء، وذلك أن الإبداء يعني الإظهار، فالتقى معنى الإبداء مع الإفصاح والتصريح، ذلك أن الإبداء لا تملكه أم موسى إذ يظهر في ملامحها وإقبالها على ولدها دون قصد أو تمثيل، فمشاعر الأمومة تغلبها، والشوق إليه يقودها إلى احتضانه وضمه إلى صدرها، فهو سلوك عفوي دون قصد، في حين التصريح قد يكون كلاماً مباشراً، ولما جمع الفعل المعنيين معاً تعدى بالباء التي يتعدى بها الفعل المضمَّن وهو (يصرّح)، ولعل الفعل (كاد) يدعم ذلك الموقف الاحترازي الذي كانت تمر به أم موسى، وهو بين الإبداء والتصريح، ثم التغلب على ذلك بوحي من الله الذي أدخل الطمأنينة إلى قلبها وثبته.

ثالثا: يقول الله تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ يوسف: ١٠٠.

يقول الزمخشري: « يقال: أحسن إليه وبه، وكذلك أساء إليه وبه[2]. ويقول ابن منظور في

(١) تفسير العز بن عبد السلام، ٢/ ٤٨.
(٢) الكشاف، ٢/ ٥٠٦.

معنى حسن: « الحُسْنُ: ضدُّ القُبْح وَنَقِيضُهُ... وَالْعَرَبُ تَقُولُ: أَحسَنْتُ بفلانٍ وأَسأْتُ بفلانٍ أَي أَحسنت إِلَيْهِ وأَسأْت إِلَيْهِ. وَتَقُولُ: أَحْسِنْ بِنَا أَي أَحسِنْ إِلَيْنَا»[1]. يفهم من هذه الأقوال أنه لا تضمين فيها، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ القصص: ٧٧، وقال تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ النساء: ٣٦.

وقال الألوسي[2]: « وقد أحسن بي» الأصل أن يتعدى الإحسان بإلى أو اللام. وقد يتعدى بالباء، وحمله بعضهم على تضمين أحسن معنى لطف، ولا يخفى ما فيه من اللطف. وقيل الباء بمعنى إلى، وقيل المفعول محذوف: أي أحسن صنعه بي، فالباء متعلقة بالمفعول المحذوف».

وذهب د. محمد نديم فاضل إلى إمكانية تضمين أحسن معنى لطف[3]، وهذا توجيه لطيف للمعنى، وهنا يرى الباحثان أن هذا التوجيه في المعنى، أي مجيء الإحسان بمعنى اللطف والعناية، كان سبباً (والله أعلم) في مجيء السياق القرآني هنا بالباء وليس بإلى؛ لتتجلى العناية الربانية التي أحاطت به – عليه السلام– ، فإذا تذكرنا المعنى الحقيقي للباء وهو الإلصاق أدركنا الدقة في البيان والقصد، فالله سبحانه تولى يوسف – عليه السلام – بالحفظ والرعاية منذ طفولته إلى أن أصبح عزيز مصر، ولم يتركه لحظة لمكر إخوانه أو لظلمة البئر أو للقافلة أو لظلمة السجن... فصنعه على عينه ولطف به واعتنى به، كل هذا الإحسان من الله متلبس بيوسف لم يغادره في مسيرة حياته، وقد ارتقى يوسف في حديثه عن إحسان الله له حين قال: أحسن بي، لينقل لنا ملازمة إحسانه له وتوفيقه عندما كان وحيدا، إلا أن الله معه وعينه تكلؤه، فلو قال: أحسن إلي لفهمنا أنه – عليه السلام – كان غاية إحسان الله تعالى، ولما كانت الصورة الدقيقة تلك، فقد جمع في تعبيره معنى الإحسان واللطف والعناية الربانية التي التصقت به ولم تغادره.

(١) لسان العرب، ١٣/ ١١٤ – ١١٥.
(٢) روح المعاني، ٧/ ٥٧.
(٣) التضمين اللغوي، ٢٨٩.

المطلب الثاني
التضمين في الحرف

يلحظ الباحثان من الشواهد السابقة أن الفعل والحرف شكلا تركيباً خاصاً، أضفى كل منهما للآخر معنى جديداً ما كان ليكون لولا ذلك الاقتران، وكما قلنا سابقاً: إن الفعل هو الأصل في الجملة، والحرف فرع، إلا أنه قادر على تحمّل معنى جديد حين يتعدى له فعل ليس من الأفعال التي تتعدى به أصلاً، دون أن يفقد المعنى الذي تصالح عليه القوم أصلاً، فحرف الباء يعني الإلصاق ولا يراوحه، إلا أنه قد يتضمن معنى حرف آخر بالإضافة إلى ذلك في سياق وتركيب معين. وسنورد بعض الشواهد القرآنية الكريمة المؤيدة ما ذهبنا إليه.

أولا: قول الله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ **التوبة: ١١٨.**

هذه صورة صامتة لحال الصحابة الثلاث: كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ، وَمُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ، بعد عودة المسلمين من غزوة تبوك بعد أن تخلفوا عن اللحاق بركب المجاهدين، وبدون عذر يقدمونه للرسول ﷺ، وكانوا من بين عدد ممن تخلفوا وبتّ الرسول ﷺ فيهم الحكم، أما هؤلاء فلم يؤايسهم الرسول ﷺ، وأرجأ الحكم فيهم حتى ينزل أمر بهم من السماء، كما أنه ﷺ منع المسلمين من التواصل معهم، وأمرهم باعتزال نسائهم في تلك المرحلة(١).

يصف القرآن الكريم الحالة النفسية التي يمر بها هؤلاء الصحابة في ترقّب لحكم الله فيهم، ولخمسين يوماً، والضيق الذي دخلوا فيه، يقول الله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ﴾ التوبة: ١١٨، فلماذا ارتبط ضيق الأرض ورحبها بالباء! نجد في هذا للمفسرين أقوالاً. يقول الزمخشري(٢): « بِما رَحُبَتْ برحبها، أى: مع سعتها، وهو مثل للحيرة في أمرهم، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرّون فيه قلقاً وجزعا

(١) انظر: سبب النزول في الكشاف، ٢/ ٣١٢. التحرير والتنوير، ١١/ ٥. وانظر: اسباب النزول للواحدي ٢٥٨.

(٢) الكشاف، ٢/ ٣١٨.

مما هم فيه وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ أي قلوبهم، لا يسعها أنس ولا سرور، لأنها خرجت من فرط الوحشة والغمّ. » وقال ابن عاشور[1]: « وقوله: (بما رحبت) حال من الأرض، والباء للملابسة، أي الأرض الملابسة لسعتها المعروفة، وما مصدرية. و (رحبت) اتسعت، أي تخيلوا الأرض ضيقة وهي الأرض الموصوفة بسعتها المعروفة. وضيق أنفسهم: استعارة للغم والحزن؛ لأن الغم يكون في النفس بمنزلة الضيق؛ ولذلك يقال للمحزون: ضاق صدره، وللمسرور: شرح صدره».

ويلحظ الباحثان التقاء الزّمخشري وابن عاشور في رسم الصورة الكلية للثلاثة، والظرف الذي يعيشونه، إلا أنهما ينتحيان منحيين مغايرين في تفسير المعنى الذي تؤديه الباء في الآية، فالزمخشري يراها قد عاقبت حرفا آخر وهو مع، وابن عاشور يراها ما زالت متمسكة بمعناها الأصلي وهو الملابسة.

ويرى الباحثان أنها تضمنت المعنيين معاً، فحين ضاقت عليهم أنفسهم، وسيطر عليهم الغمّ والهمّ وانتظار صدور الحكم من الله بالتوبة والفرج، لم يروا من حولهم إلا ما هم فيه، وتمحورت الدنيا كلها بما فيها بقضيتهم، فعاشوا أياما وكأنها سنوات طوال، والذي يعيش لحظات الانتظار تطول الساعات عليه، كما تضيق المساحات الرحبة؛ لذا يرى الباحثان أن الضيق في الصدور قد لابس سعة الأرض وأصبحا واقعا لا فكاك فيه، فتداخلت السعة الحقيقية للأرض مع الضيق المجازي، أي صاحب الضيق السعة في آن واحد، فلم يعد يميز الواحد منهما أيهما هو واقع الأمر: الضيق الذي يحسه أم السعة التي تحيط به، وهو لا يرى من الدنيا غير الحزن الذي يسيطر على نفسه، ولا يكاد يخرج منه؛ ولذلك فإن الباء تحملت معنى الملابسة أو الإلصاق بالإضافة إلى معنى المصاحبة أي معنى الحرف (مع).

ثانيا: قول الله تعالى: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ آل عمران: ١٥٣.

قالوا: إن الباء في قوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ ﴾ بمعنى مع، أو سببية، أو الملابسة

(١) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، ١١/٥٣.

وهو المعنى الحقيقي الأصلي للباء[1]. ولو تأملنا الواقعة التي نزلت بها هذه الآية الكريمة لتبين أن الباء تحمل المعاني كلها، فقد اغتمّ النبي ﷺ لهزيمة المسلمين يوم أحد نتيجة مخالفتهم أوامره، كما اغتموا لكسر رباعيته في ذلك اليوم، وقد لابس غمّه ﷺ غمّ المسلمين، وتداخل الغمّان حتى أصبحا غمّاً واحدا؛ لأن ما يسيئه ﷺ يسيئهم، وما يسيئهم يسيئه عليه الصلاة والسلام، فلا فرق بين الغمّين، فهما كجسد واحد، والألم واحد، وهذا يقودنا للمعنى الثاني، فقد كان الغمّ الأول سبباً للغمّ الثاني، كما صاحب الغمّ الأول الغمّ الثاني، فهي بمعنى مع.

وغيرُ خافٍ أن قبولنا تضمين هذه المعاني كلها في حرف الباء أدى إلى التوسع في المعنى، ولم ينحصر معناها في دلالة واحدة، من خلال ربط الباء ما سبقها بما بعدها. ولا مانع من إرادة المعنيين والسياق يقبل كليهما، وصورة المشهد يومئذ تنبئ بهذه المعاني كلها.

ثالثا: قول الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تنزيلا ﴾ الفرقان: ٢٥.

قال الزمخشري[2]: « ولما كان انشقاق السماء بسبب طلوع الغمام منها، جعل الغمام كأنه الذي تشقق به السماء، كما تقول: شق السنام بالشفرة وانشق بها. ونظيره قوله تعالى: السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ. فإن قلت: أي فرق بين قولك: انشقت الأرض بالنبات، وانشقت عن النبات؟ قلت: معنى انشقت به: أنّ الله شقها بطلوعه فانشقت به. ومعنى انشقت عنه: أنّ التربة ارتفعت عنه عند طلوعه. والمعنى: أن السماء تنفتح بغمام يخرج منها، وفي الغمام الملائكة ينزلون وفي أيديهم صحائف أعمال العباد. »

وقال ابن عاشور[3]: « وَالْبَاءُ فِي قَوْلِهِ: بِالْغَمامِ قِيلَ بِمَعْنَى (عَنْ) أَيْ تَشَقَّقَ عَنْ غَمَام يَحُفُّ بِالْمَلَائِكَةِ. وَقِيلَ لِلسَّبَبِيَّةِ، أَيْ يَكُونُ غَمَامٌ يَخْلُقُهُ اللهُ فِيهِ قُوَّةٌ تَنْشَقُّ بِهَا السَّمَاءُ لِيَنْزِلَ الْمَلَائِكَةُ مِثْلُ قُوَّةِ الْبَرْقِ الَّتِي تَشُقُّ السَّحَابَ. وَقِيلَ الْبَاءُ لِلْمُلَابَسَةِ، أَيْ تَشَقَّقُ مُلَابِسَةً لِغَمَامٍ يَظْهَرُ حِينَئِذٍ. »

وعلى القولين فإن الباء تضمنت معنيين: الملابسة والسببية، فإذا كان الغمام سبباً في تشقق السماء وتفتحها، ثم نزول الملائكة يوم الحساب، فهي كذلك ترسم أمامنا مشهد ذلك

(١) انظر: الدر المصون ٣/ ٤٣٨، وتفسير المنار ٤/ ١٥٢، وتفسير اللباب ٥/ ٦٠٦، والكشاف، ١/ ٤٢٧.
(٢) الكشاف، ٣/ ٢٧٥.
(٣) التحرير والتنوير، ١٩/ ١٠.

اليوم العظيم، حين تنشق السماء وتنفتح أبوابها يلابسها سحب رقيقة تحيط بالملائكة، فهناك عناصر ثلاثة تظهر لنا في ذلك المشهد: سماء تتشقق بقوة الغمام لتنزل الملائكة بعد أن كانت في وضع لا يسمح لها اختراق السماوات بأمر من الله تعالى، وكل هذه العناصر ملتصقة ملتبسة بعضها ببعض.

مما سبق يخلص الباحثان إلى القول: إن حرف الجر (الباء) له وظيفة دلالية بالإضافة إلى الوظيفة النحوية، فقد استطاع توجيه المعنى في السياقات إلى معنى غائص في الأعماق متميز عن المعنى المباشر أو الظاهر، وذلك حين التمسنا فيه معاني أخرى غير التي وضعت له أصلاً، وهذا ما يوضح سبب تسميتها بحروف المعاني، إذ من خلالها تمكنّا من الكشف عن معاني دقيقة في السياق. أما ما ذهب إليه بعضهم بتناوب الحروف فالباحثان مع من أنكر ذلك؛ فإن حروف الجر تأبى أن تتخلى عن معانيها الأصلية، بل لا تكاد تراوحها وتخرج عن نطاقها.

نتائج الدراسة

الحمد لله أولا وآخرا، فقد أعاننا الله سبحانه على إتمام هذه الدراسة التأصيلية والتي عنيت بظاهرة التضمين في الأفعال والحروف، وقد أراد الباحثان تتبع آراء اللغويين والمفسرين وما انتهوا إليه في هذا الباب. **هذا وانتهت الدراسة بالنتائج الآتية:**

١. إن ظاهرة التضمين شكل من أشكال الاقتصاد اللغوي الذي يسعى إلى تكثيف المعاني بأقل الألفاظ، فالعربي منذ القديم لجأ إلى الإيجاز في التعبير حيثما تمكن، ما دام السياق يدل على المقصود، وأن المعنى يدركه المتلقي.

٢. إن القول بتناوب حروف الجر تضييق لدور الحرف في أداء المعنى، وقصر على ظاهر اللفظ، وتوجيه للحرف توجيها واحداً لا يتزحزح عنه. والعربية أوسع من ذلك وأعمق.

٣. إن التضمين اللغوي لا يقتصر على الأفعال في العربية، وإنما حروف الجر كذلك، فإذا كان الفعل قادراً على تحمّل أكثر من معنى في آن، فيتضمن إلى جانب معناه الحقيقي الموضوع له معنى آخر، يكشف عنه تعديه بحرف جر لا يتعدى إليه في الأصل، فإن حرف الجر يتضمن معنى آخر بالإضافة إلى معناه الموضوع له أصلاً، حين يرتبط بفعل ما في سياق ما.

٤. إن السياق هو مكمن السر في اختيار المعنى الدقيق، سواء في الفعل أو في الحرف، وبدون

ورود الكلمة في سياقها لا نستطيع الحكم على المعنى الدقيق والعميق الذي يحمله اللفظ، بغض النظر عن ذلك اللفظ.

٥. إن خير شاهد على ظاهرة التضمين اللغوي هو النص القرآني الكريم، وقد كان في مقدمة مصادر الاحتجاج اللغوي عند اللغويين قديما وحديثاً؛ ولذلك لا يمكن تجاوز الأسلوب القرآني عند بحث أية ظاهرة لغوية، فإذا ثبت بروز تلك الظاهرة في النص القرآني نكون قد أثبتنا في الوقت نفسه مجيئه في كلام العرب، وهو الذي نزل بلسانهم.

٦. إن حروف المعاني، وأقصد حروف الجر، تجاوزت وظيفة الربط فقط بين عناصر الجملة إلى الوظيفة الدلالية، فكثير من الأحيان هي التي توجه معنى الفعل في العبارة، وتقلب المعنى من الحقيقي إلى المجازي.

٧. إن ما ذهب إليه البلاغيون مما أطلقوا عليه الاستعارة التبعية في الحرف يثبت ما ذهبنا إليه، أن الحرف قد يتضمن معنى آخر دون أن يفقد المعنى الحقيقي أو الأصلي الذي وضع له، وذلك من خلال علاقته بمتعلّقه.

المصادر والمراجع

١. ابن جني الموصلي، أبو الفتح عثمان، الخصائص (ط. ٤)، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢. ابن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني، أبو حفص سراج الدين عمر بن علي، (١٩٩٨م)، اللباب في علوم الكتاب (ط. ١)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.

٣. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر. التحرير والتنوير (م. ١١). الدار التونسية للنشر.

٤. ابن عطية، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ

٥. ابن منظور الأنصاري، محمد بن مكرم بن على. (١٩٨٤م). لسان العرب (ط. ٣). بيروت، لبنان: دار صادر.

٦. ابن هشام، جمال الدين. (١٩٨٥م). مغني اللبيب عن كتب الأعاريب (ط. ٦). المحقق:

د. مازن المبارك و محمد علي حمد الله. دمشق، سوريا: دار الفكر.
٧. ابن يعيش. (٢٠٠١م). شرح المفصل للزمخشري (ط. ١). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
٨. أبو حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي. (١٤٢٠هـ). البحر المحيط في التفسير. المحقق: صدقي محمد جميل. بيروت، لبنان: دار الفكر.
٩. أبو موسى، د. محمد حسنين. (١٩٩٣م). التصوير البياني (ط. ٣). القاهرة، مصر: مكتبة وهبة.
١٠. أبو موسى، د. محمد. البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية. القاهرة، مصر: دار الفكر العربي.
١١. الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ)، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.
١٢. البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي. (١٤١٨). أنوار التنزيل وأسرار التأويل (ط. ١). المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي.
١٣. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى ٤٥٨هـ)، السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤ هـ، ٢٠٠٣ م
١٤. الجاحظ، عمرو بن بحر بن محبوب. (١٤٢٣هـ). البيان والتبيين. بيروت، لبنان: دار ومكتبة الهلال.
١٥. الجمل، سليمان العجيلي، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين، دار الفكر، د ت.
١٦. الجوهري، أبو نصر اسماعيل بن حماد، (١٩٨٧م)، تاج اللغة وصحاح العربية (ط. ٤). تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، لبنان، دار العلم للملايين.
١٧. الجهضمي، القاضي أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق، (٢٠٠٥م)، أحكام القرآن (ط.

١). المحقق: عامر حسن صبري، بيروت، لبنان، دار ابن حزم.
١٨. حسن، عباس، النحو الوافي (ط. ١٥)، دار المعارف.
١٩. خليل، د. عبد النعيم، (٢٠٠٦م)، البعد الدلالي في الدرس النحوي. مجلة كلية التربية، ١٢(٣).
٢٠. الزمخشري جار الله، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، (١٤٠٧هـ). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (ط. ٣)، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي.
٢١. السكاكي. مفتاح العلوم، مكة المكرمة، دار الباز، د ت.
٢٢. السمين الحلبي، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون. المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط. دمشق، سوريا: دار القلم.
٢٣. سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، أبو بشر. (١٩٨٨م). الكتاب (ط. ٣)، المحقق: عبد السلام محمد هارون. القاهرة، مصر: مكتبة الخانجي.
٢٤. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ، ٢٠٠٠ م.
٢٥. عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، أبو محمد الملقب بسلطان العلماء. تفسير القرآن. المحقق: الدكتور عبد الله بن إبراهيم الوهبي. بيروت، لبنان: دار ابن حزم.
٢٦. عوني، حامد. المنهاج الواضح للبلاغة (م. ١). المكتبة الأزهرية للتراث.
٢٧. فاضل، د. محمد نديم. (١٤٢٦هـ). التضمين في القرآن الكريم (م. ١). المدينة المنورة: مكتبة دار الزمان للنشر والتوزيع.
٢٨. فرحات، أحمد حسن، القرآن والشباب، د ت، د ط.
٢٩. المبرد، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدي، أبو العباس. المقتضب. المحقق: محمد عبد الخالق عظيمة. بيروت، لبنان: عالم الكتب.
٣٠. المرادي، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن علي. (١٤١٣هـ). الجنى الداني في حروف المعاني (ط. ١). المحقق: د. فخر الدين قباوة و الأستاذ محمد نديم فاضل. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
٣١. محمد رشيد علي رضا، (١٩٩٠م). تفسير المنار تفسير القرآن الحكيم. الهيئة المصرية

العامة للكتاب.
٣٢. الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى. جواهر البلاغة في المعاني والبيان. المدقق: د. يوسف الصميلي. بيروت، لبنان، المكتبة العصرية.
٣٣. الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، أسباب نزول القرآن، تحقيق: عصام الحميدان، دار الإصلاح، الدمام، ط٣، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.